الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله
الدكتور عفيف دمشقيّة

ثورية التعريب

من منظور وحدوي


منشورات الطليعة





الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

من الثابت الذي لا شك فيه ان وحدة اللغة من اهم العوامل في تمكين وحدة الشعب وتقوية اواصره وشد عزمه على التآخي والتعاون ودفعه للسير قدما في مضمار التطور ومعارج التقدم . وكثيرا ما وقع بسبب اختلاف اللغات بين الشعوب وسوء التفاهم على المعاني تشنجات اجتماعية وسياسية ادى بعضها الى قيام حروب وثارات سالت فيها دماء غزيرة وتبددت ثروات ضخمة .

ولقد كان لنا في الجاهلية لهجات متباعدة تغالي بعض العلماء فيسماها لغات كأبي عمرو بن العلاء القائل: « ما لغة حمير بلغتنا ولا لسانهم بلساننا » ولولا اسواق العرب الدورية لما تقاربت هذه اللهجات فزالت الفوارق وتروقت الالفاظ وتهذبت المعاني وتوضحت المصطلحات وسهل التفاهم وقامت اشباه اتحادات سياسية قبلية كانت ارهاصا للوحدة العربية التامة الشاملة التي انبثقت مع الاسلام ودعمها كتاب الله الكريم وانضجت لنا هذه الحضارة التي ما زلنا نفاخر بها حتى اليوم . فمنذ ذلك الوقت والعرب كلما مزقتهم الاحداث او فرقتهم المصائب وجدوا في الاسلام الذي وحدهم داعيا الى الصلح وفي القرآن الكريم الذي انضبطت لغتهم عليه اساسا للاتحاد والتفاهم . لقد جمعهم القرآن الكريم فألف بين قلوبهم ووحد صفوفهم وخلق منهم قوة يخشى بأسها ودفعهم في سلم الحضارة صعدا ، فنحن حينما ندعو الى لغة القرآن المجيد ونسعى الى تفصيح العامية ، انما ندعو الى تحاب وتفاهم بين العرب . والتقاؤنا على الفصحى في جميع اعمالنا العلمية والادبية والفلسفية هو اول الطريق نحو وحدتنا المنشودة اقتصاديا وسياسيا وعسكريا . وحدة الفكر والتفاهم اولا ، فهي التي تحدد شخصيتنا وتثبت اقدامنا في التطور الحضاري ضمن المجتمع الدولي المتقدم .

كل شعوبنا ترنو الى الوحدة العربية الكبرى بعيون ظماء وقلوب متلهفة . وكل شعرائنا وكتابنا وارباب الفنون منا يتحدثون عنها ، وكل زعمائنا يتخذونها تكأة سياسية ... وكلما حزبنا امر اودهتنا مصيبة او اعتدى علينا مستعمر قلنا : لو كنا متحدين لكان لنا موقف آخر يرهب العدو ويرضي الصديق لكن كيف يتم لنا تحقيق هذه الوحدة او الاتحاد او ما شئتم له من تسمية ، اذا كنا لا نستطيع التفاهم بدقة على ما نريد ؟ ونتحدث بلهجات متباينة نكاد ندعي بأنها لغات لعظم التفاوت فيما بينها ، فنحن لا نختلف على المسميات والتراكيب وحسب ، بل ان نطقنا فيما اتفقنا عليه مختلف احيانا اختلافا يظن معه انه لغة اخرى .

---

(1) استدعي الاستاذ السيد عبد العزيز بنعبد الله للحضور في « الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامي » الذي انعقد بوهران (الجزائر) بين 20 و 30 يوليوز 1971 فشارك بهذه المحاضرة .

ومع هذا نجد بيننا من يدعو الى تعميق هـذا التفاوت باستخدام اللهجات العامية مكان العربيـة الفصحى ويسميها لغات . فهناك من يدعو الى العامية اللبنانية بحماسة ، وقد وضعت فيها كتـب تطبـع اليوم في بيروت بعشرات الالوان وتـوزع بالمجـان تقريبا أو بثمن رمزي . وتكتب بحروف لاتينية ويكافأ المبرزون فيها بجائزة مقدارها نحو اربع مئـة دولار وهي جائزة مستمرة تدفع في مطلع كل شهر للفائـز الاول في تخريب الفصحى ، فيتهافت كثير من الشبان عليها طامعين بها وفي يد كل منهم معوله يضرب بـه في اساس اللغة فيخرب ناحية ويهدم ركنا حتى بلـغ عدد الكتب المؤلفة باللغة العامية اللبنانية العشرات ، وهم يسمونها اللغة الفنيقية احيانا ويدعون بأنهم ورثة فنيقيا التي كانت قائمة في لبنان قبل نحو ثلاثة آلاف عام . والناس العقلاء الطيبون يتساءلون : من اين ياتي هذا الداعية الفقير بالمال لينفقه في هذه السبيل ؟ !

ونجد بيننا من يدعو الى كتابة الاغاني والحوار القصصي والمسرحي والسيناريو السينمائي باللهجات العامية ، وتقام للدعوة الى ذلك مناظـرات صحفيـة وندوات وتؤلف الكتب وتنشأ المقالات وتفتح المجلات المصورة لها صدورها وترحب بها .

ونجد بيننا من يدعي بأن اللغة العربية ضعيفـة قاصرة لا تستطيع مجاراة التطور الحضاري والعلمي المعاصر ، ويرون الخير في تركها واهمالها وتدريـس العلوم بأي لغة اجنبية سواها .

وليت الامر اقتصر على الضجيج في الصحـف والندى وحدها ، ليته وقف عند هذا الحد اذن لهـان الامر وقلنا : حسبنا الله في بعض شـواذ النـاس ومتنطعيهم ، اما ان يحمل هذه الدعوى عضو مجمعي فيدعو فيه الى نبذ الحروف العربية نبـذا قاطعـا واستخدام الحروف اللاتينية مكانها توطئة لتقريبنا من الحضارة الاوربية على حد زعمه فأمر يدعو الى كثيـر من التعجـب .

ونجد بيننا من يدعو الى تحطيم قواعد الفصحى وتكسير اساليبها وتدمير بلاغتها وتمزيـق شعرهـا ونثرها وهجر اوزانها الموسيقية العذبة ، ويتغالون في استخدام المجازات والاستعارات والكنايات البعيـدة ويسمونها رمزية ويستخدمون الالفاظ في غير مـا وضعت له ويسمونها سريالية حتى عمـي على قارىء العربية فهم ما يقصدون فكأنهم يكتبون لغة اخـرى لا صلة بيننا وبينها الا صور الحروف وحسـب .

ولو رجعنا الى أصل هذه المعـارك ودرسنـا اسبابها الحقيقية لوجدناها سالكة سبلا متفرقة لكنها كلها ترمي الى هدف واحد . فالحركة الالحادية تبعدنا عن عماد هذه اللغة وقطب رحاها ، تبعدنا عن كتاب الله الذي كان سبب وحدتنا وتقدمنا . فمتى تحللنا منـه ونبذناه ضعفت لغتنا وضعفنا معها وتمزقنا وسهـل على المستعمر ازدرادنا لقمة سائغة .

والحركة الداعية الى لاتينية الحرف ، تهـدف الى قطع صلتنا بماضينا الحضاري والفكري ، وتفريغ مجتمعنا من الداخل تفريغا يجعله قابلا لأن يملأ بمـا يريدونه لنا ، فنعود الى وهدة التبعية التي لم نتخلص منها الا بشق الانفس وتقديم ملايين الضحايا .

والحركة الداعية الى العامية تهدف الى تمزيقنا تمزيقا يباعد بين اقاليمنا فنغدوا شعوبـا صغيـرة متخاذلة لا تفاهم بينها ويتركنا صفارا ضعفاء متهالكين امام اي صيحة ونتهافت تحت كل ضربة .

إن معركتنا ايها السادة معركة شرسة طحـون غير أن سلاحنا فيها ماض قـوي لو عرفنـا كيـف نستخدمه ، ان ايماننا بسمو لغتنا وقدرتها على التطور ومساوقة اى لغة عالمية في اى علم من العلوم هـذا الايمان لا يكفي وحده ، لا يكفي ان نتغنى بهذا الجمال وبهذه القدرة ، ونقف عند كتابة المقالات الضافية في تمجيدها ونظم القصائد الطوال في الثنـاء عليهـا وتقديرهـا .

ان اللغة الآن في محنة من اشد المحن ، تقاتـل على جبهات متعددة بعضها خارجي وبعضها داخلـي ، وتجتاز مآزق حاسمة في أعنف لحظاتها التاريخيـة ، فان لم تقف في وجه هذا التحدي بتحد اشد واصلب، سقطت في هاوية لا مخرج لها منها . ان خصومهـا يخططون لتخريبها تخطيطا علميا بارعا ويدرسون ثـم يصممون ويعملون ضمن برنامج معروف المبدا معروف الاسلوب معروف النهائية ، ولا مناص لنا من خوض هذه المعركة بمثل سلاحهم ، اما التفاخر بالماضـي والادعاء العاطفي والارتجال فأمور لا تجدي في معركتنا هذه فتيلا . يجب ان نثور ثورة عاقلة وان تكون اول ثوراتنا على انفسنا فنغير مناهجنا وسلوكنا وتكتيكنا ثم نحدد خطتنا ونعين هدفنا وننطلق بايمان لا نلتوي بعده مهما تعاورنا من محن او تأكدنا من عقبات . ان اهم معاركنا تدور في حومات ثلاث هي :

أ ـ معركة الحرف العربي واصول الكتابـة الطباعيـة

ب ـ معركـــة العاميـــة

جـ ـ معركـــة التعريـــب .

وما عدا ذلك فتبع لها او مشتق منها او متعاون معها . وسنعرضها بشيء من ايجاز لتركيز البحث عليها اذا شئتم وما امرها بخاف عنكم .

1 ـ الحرف العربي :

يقيسون الحرف العربي في الطباعة على الحرف الافرنجي فيقولون :

ان رصف صفحة بالخط الفرنجي يعادل في الزمن رصف صفحة بالخط العربي ، ومعنى ذلك انه بينما يصف عامل المطبعة الافرنجي حروف صفحتين لا يستطيع زميله العربي ان يصف اكثر من صفحة واحدة ، وعيون الحروف الفرنجية في لوحة الرصف لا تزيد على التسعين لان كل حرف منها وحدة قائمة بذاتها يمكن رصه في اول الكلمة او وسطها او آخرها ونقله من مكان الى آخر بمنتهى السهولة ، اما الحرف العربي فتختلف صوره باختلاف موقعه من الكلمة ، فالعين مثلا في كلمة « عدل » الواقعة في اول الكلمة لا تشبه العين الواقعة في وسطها مثل « يعود » او في آخرها موصولة مثل « سميع » او في آخرها مفصولة مثل « سماع » وهناك حروف تتصل بسابقها وبلاحقها وحروف تتصل بسابقها ولا تتصل بلاحقها مثل «الواو» وهناك الهمزة في اول الكلمة وفي وسطها وفي آخرها فقد تعتلي متن الالف او تركب ظهر الواو او تجلس على كرسي او تنفرد وحدها ... وهناك المدة والشدة والتنوين .. وهناك الحركات من ضمة وفتحة وكسرة وهكذا تتزايد العيون اللازمة للحرف العربي حتى تبلغ سبع مائة عين او اكثر . فاذا احتاج العامل الفرنجي الى شهرين ليتقن صناعة صف الحرف ، فلن يقل الزمن اللازم لزميله العامل العربي عن ستة اشهر ولهذا اختصروا فدعوا الى اتخاذ الحرف اللاتيني وراوا فيما ابتدعه مصطفى كمال اتا تورك للغة التركية مثالا يحتذي . ونسوا ان :

1 ـ اللغة التركية لغة حديثة غير ذات امجاد حضارية وما فيها من نفائس الكتب مترجم اكثره عن العربية وان اللغة التركية وليدة جديدة ما زالت في دور الحضانة والنمو وانها تستعير نحو ثلثها من اللغة العربية والثلث الثاني من الفارسية والطورانية والثلث الاخير مستعار من اللغات الاوربية الحديثة .

2 ـ وانا لو بدلنا حرفنا هذا واتخذنا الحرف اللاتيني مكانه لاحتجنا الى اعادة طبع عشرات الألوف من كتبنا القيمة وفيها ارث حضارتنا وثقافتنا وتاريخنا وامجادنا والتبديل يحوجنا الى زمن طويل جدا وجهد جبار وبذل مليارات من الدنانير الذهبية ، وهو امر تعجز عنه ميزانيات البلاد العربية مجتمعة .

3 ـ وعجزنا عن اعادة طبعها كلها يدعونا الى اهمال كثير منها والى الانقطاع انقطاعا تاما عن مخطوطاتنا الغميسة وهي لا تقل عن مليونين وفيها من النفائس ما لا تقابله مخطوطات اي لغة اخرى في العالم أليس في مغامرتنا هذه ضياع كنوز فكرية لا تقدر بمال الدنيا ؟! .

4 ـ وقد ثبت الآن ان الحرف العربي حرف مثالي في جمال تكوينه وشكله وتنوعه والتوائه واستوائه وتعريجاته واختصاره ، وان الصفحة الواحدة من الكتاب العربي لو كتبت بالحرف اللاتيني لاحتاجت الى صفحتين على الاقل ، فالكتاب المؤلف من مائة صفحة بهذا الخط الجميل لا يمكن رصفه باقل من مائتي صفحة بالحرف اللاتيني وما جدوى كل هذا التبذير ؟!

5 ـ ان تطور الطباعة اليوم يتجه اتجاها سريعا نحو اللونيتيب والمونوتيب ومعنى ذلك هو العدول بالتدريج عن اسلوب الرصف الحرفي واختصار القوالب الى نحو 160 فقط ، وقد توصل بعض العلماء الى ابتكار رسم حديث للحرف العربي لا يخرجه عن شكله ولا يبعده عن اصله ولا تزيد قوالبه على المائة ، واهتمت جامعة الدول العربية بهذه المشكلة وتبنت بحثها ومناقشتها ودعت الى ندوة خاصة بذلك تعقد وشيكا واستدرجت لها كل المعنيين بها وقدم المغرب مشروعا ممتازا لا تزيد فيه قوالب الحروف عن التسعين مع جميع ملحقاتها من همزات وشدات ومدات وحروف اجنبية لا ينطقها العرب . والامل قريب بتوفيق الجامعة الى حل مشكلة الحرف حلا سريعا وموضوعيا تسهل به الكتابة على الراقنة « الآلة الكاتبة» وفي المطابع بحيث تسقط دعوى الداعين الى الحروف اللاتينية ويفقد خصومنا معركة .

ب ـ معركـــة العاميـــة :

يحتج الداعون الى العامية بعجز الفصحى عن التعبير بدقة وعمق عن خلجات النفوس وتصوير اللمحات العاطفية والامثال الدارجة في كل قطر . وبأن الطفل العربي يعاني في دراسة الفصحى ما يعانيه في تعلم اي لغة اجنبية سواها ، نخير له ان يدرس لغة اجنبية يتابع فيها دروسه العالية من بعد في مواطن العلم ، ويقتصد بذلك اقتصادا كبيرا في الزمن والجهد والمصروف !!

1 ـ ونسي هؤلاء الداعون او تناسوا ان في تقوية اللغة العامية اضعافا للغة الفصحى وتوهينا

لعزمها وخلقا لعدد من الشعوب تبدا عربية اقليمية ثم لا تزال تتباعد مع الزمن وتوالي الاجيال حتى تنتهي الى شعوب نبطية ضعيفة متهالكة لصغرها امام القوى الكبرى فتهون على الاعداء وما اكثرهم ويلحق العرب بالشعوب البائدة التي اهملت نفسها واحتقرت لغتها ولم تخدمها واستعارت لغة سواها لثقافتها وتعاملها فذابت فيها ولم يبق لها ذكر يذكر . اين البابليون والآشوريون والسومريون والفنيقيون والقحطانيون والسريان ؟ ! .. اتظنون انهم قد بادوا بأشخاصهم ، وان اصولهم قد اجتثت من الحياة اجتثاثا ؟ كلا .. ان بقاياهم ما زالت تعيش بيننا ولكن من يعرفها ومن يحترمها ومن يقيم لها وزنا وما قيمتها في الحضارة ؟ !

2 ــ والغريب ان يتجه العالم كله نحو التكتل ليصون نفسه بقوة اعظم وهؤلاء يدعون الى التمزق والتصاغر والضعف والتهالك فاي جناية اعظم منها ؟

3 ــ ونحن لا نرى ضيرا في بقاء العامية لغة للتعامل اليومي على شرطين هما :

ا ــ ان يباعد بينها وبين الادب شعره ونثره فتجلو عن الصحف والمجلات المصورة والقصص والمسرحيات وما شاكلها .

ب ــ ان يسعى السعي الحثيث لتفصيحها وتقريبها من اللغة القويمة بحيث تصبح الشقة بينهما أقرب ما يمكن حتى يسهل التفاهم بين العالم ورجال الشارع بغير كبير عناء ، وعلى اى حال فان أمر ذلك كله بين أيدي قادة الفكر العربي والمعلمين والمدرسين فى جميع مراحل التعليم .

جـ ــ التعريب :

قالوا بان اللغة العربية لغة قديمة اصبحت عاجزة من مجاراة التطور العصري قاصرة عن مباراة اللغات الحية فى العلوم . وقالوا : ان فى حروفها نقصا فنحن لا نستطيع النطق ببعض الحروف الضرورية فى المسميات العلمية امثال En V.U.G. ... وما شاكلها . وقالوا : ان الفكر العلمي المعاصر يخلق فى كل يوم نحو مائة مصطلح جديد فكيف تلحقه اللغة العربية ؟ وقالوا غير ذلك كثيرا . والجواب عن هذا :

1 ــ ان نقصان اللغة العربية بعض الحروف لا يعيبها ، ولها أسوة بأقدر اللغات الحية المعاصرة ، فهل فى لغة من لغات العالم الحي حرف (ح) او (ع) مثلا . وهل فى الفرنسية حرف (ق) ، ماذا فعل الغربيون للتوصل الى النطق بالخاء والطاء والصاد وما شابهها ؟ اصطلحوا على رسوم معينة واشارات تضاف الى حروفهم ليلفظوها كما نلفظها نحن فى العربية . وكتب المستشرقين والمستعربين وشراح مخطوطاتنا ومترجميها مليئة بأمثال ذلك . فهل نكون اقل منهم دراية ؟ ! ومتى تمت الموافقة على الحرف العربي الجديد والمصطلحات الجديدة فى ندوة جامعة الدول العربية العتيدة ، فلن يبقى هناك عذر لمعتذر .

2 ــ ان التجربة العلمية الناجحة التي قامت بها سوريا عام 1919 واستمرت سائرة على نهجها الى اليوم تنفي دعواهم نفيا باتا ، فقد عربت سوريا التعليم فى جميع مراحله من دور الحضانة حتى نهاية الجامعة وخريجو جميع الفروع من علمية ورياضية وطبية وصيدلية وهندسية وزراعية لا يقلون عن زملائهم فى اي دولة راقية .

والخطوة الجبارة الشجاعةالتي خطتها الجمهورية الجزائرية هذا العام نحو التعريب ، لم تقدم عليها الا بعد بحث وتمحيص واستقصاء ، وستؤتي اكلها وتصبح نموذجا آخر حيا فى العالم العربي يرد به على دعاة التخريب على ان هذا لا يتعارض ووجوب التضلع من اللغات الاجنبية تدعيما للتعمق العلمي والفكري على الصعيد العالمي .

3 ــ ان الكرامة القومية تقتضي بأن ندرس فى جامعاتنا بلغتنا القومية ، نفعل كما تفعل جميع **الامم التي تحترم نفسها وتقدر قيمة لوجودها وتثبت عزمها على فرض شخصيتها والمساهمة فى حقل الحضارة والانسانية ، فالامم حتى الصغيرة منها كالبانيا وبلغاريا تأبى ان تدرس في جامعاتها بغير لغتها القومية بل هذه اسرائيل سارقة فلسطين من العرب تدرس في جامعتها جميع العلوم والفنون باللغة العبرية مع ان لغتها لم تتجدد الا فى مطلع هذا القرن . أفنعجز نحن عن وضع لغتنا فى مكانها المرموق ؟** هذه اللغة التي حملت امانة الحضارة طوال القرون الوسطى ومنحتها جميع المصطلحات الانسانية والعلمية والتقنية كالطب والهندسة والموسيقى والفلك والرياضيات والفلسفة .. لم تعجز عنها فى عصور كانت وسائل التواصل الفكري بين البلاد شبه بدائية . افنعجز عنها اليوم ونرميها بالعقم ونحن فى عصر النور والكهرباء والذرة واللاسلكي والفضاء ؟ ! ان اجدادنا لم يجبنوا امام تيار الحضارة بل اخذوا واعطوا وترجموا ونحتوا

واشتقوا وعربوا وطاوعتهم اللغة مطاوعة عجيبة ، وكان لهم جامعاتهم في بغداد وفاس وقرطبة ومصر ودمشق وتونس . وسيطرت لغتنا على ثقافة تلك القرون حتى لقد تشكى بعض الكرادلة والبابوات من اهمال المسيحيين المثقفين اللغة اللاتينية واتخاذهم اللغة العربية مكانها !!

لكن كيف ندرس نحن في جامعاتنا بلغتنا القومية اذا لم نقم على قاعدة من العربية الصحيحة في المدارس الابتدائية والثانوية اولا ؟ ! من هنا نبدا . يجب ان نهيء لتلاميذنا كتبا في العلوم والفنون بحيث لا ينقصهم من المدركات العلمية والفنية شيء . يجب ان نعد لهم كتبا موحدة المصطلحات لينشأ الجيل الصاعد موحد التفكير موحد النظر الى الامور العامة ، موحد الاتجاه في لب الحضارة المعاصرة . وكيف نوحد هذه المصطلحات ؟ ومن يعمل على هذا التوحيد ؟ لقد كانت تجربة سوريا درسا سويا ناجحا لو اقتصر الامر على سوريا وحدها. إما وقد درجت بعض الدول العربية في بعض كلياتها الجامعية على سبيلها كالعراق والاردن ومصر والمجامع اللغوية فيها تعمل بجهد واخلاص ، ولكن كل واحد منها يعرب ويصحح منعزلا عن الآخر ، وفي كل بلد علماؤه ولغويوه واساتيذه . ولكل منهم وجهة نظر وجيهة ، فكيف نربط بينهما جميعا ؟ !

هنا يبرز دور مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي الذي دعا اليه المرحوم محمد الخامس فاجتمع مندوبو الدول العربية في الرباط عام 1961 واقروه ومنحوه ثقتهم . ثم تبنته الجامعة وضمته اليها فاصبح جزءا منها اعتبارا من عام 1968 .

كيف يعمل مكتب التعريب ؟ :

ان إيجاد هذا المكتب عمل ثوري في حد ذاته . انه ثورة هادئة عميقة معقولة ، انه ثورة مدروسة مخطط لها إنطلقت من مبدا ثابت رصين وسلكت سبيلا نيرا ورمت الى هدف واضح معروف .. ولاحظ المكتب هذه الفوضى في التعريب وراى كيف يوضع للمصطلح الواحد اكثر من مرادف معرب احيانا وعرف ان من اهم الاسباب في ذلك اختلاف اثر الثقافات الغربية في العلماء العرب فبعضهم تاثر بالثقافة اللاتينية كسوريا ولبنان والمغرب العربي وبعضهم تاثر بالثقافة السكسونية كالعراق والاردن ومصر وان بعض العلماء على حظ كبير جدا من العربية ومن الثقافة الاسلامية كخريجي الازهر والنجف ودمشق والزيتونة والقرويين . وبعضهم على حظ ضئيل منها كخريجي المعاهد الاجنبية .

ولاحظ المكتب كذلك ان مستوى المدارس الابتدائية في معظم الوطن العربي دون مثيلاتها في البلاد الراقية ، وقام باحصاء دقيق للمصطلحات والمدركات الواردة في جميع الكتب المدرسية وجردها فاكتشف امرا عجيبا وهو ان مجموع مدركاتنا لا يتجاوز ثمان مائة مدرك ، بينما يتجمع في ذهن التلميذ الأجنبي الف وخمس مائة مصطلح (4) . ومعنى ذلك ان مستوى ادراك الطفل العربي يقل عن مستوى زميله الاجنبي بمقدار النصف ولذلك يعاني تلميذنا في ملاحقة المدركات العلمية في المدارس الثانوية والجامعية معاناة مؤلمة جدا هي التي جعلت نسبة الناجحين بالامتحانات العامة والانتقالية في مستوى منخفض .

عرض المكتب هذا الواقع على الدول العربية ودعاها الى اعادة النظر في الكتب والمناهج معا وقدم لها نموذجا هو معجم رياضي شامل وسيلحقه قريبا بمعجم لدروس الاشياء استكمالا للمفاهيم الانسانية في الاطفال اي دعا الى ثورة عميقة في اول درجة من درجات الثقافة لان الكتب المدرسية ما هي الا صدى للمناهج وكان ذلك اول اعماله ثم التفت الى المصطلح المعرب فوجد ان حاجة البلاد العربية اليه متفاوتة تفاوتا بعيدا كذلك . فبينما تغلغل الاستعمار في بعض البلاد الى اعماق مجتمعها وحاول اجتثاث ثقافتنا العربية من اصولها ونشر لغته بكل وسيلة حتى اصبحت لغة المدرسة والمعمل والشارع والبيت ، توقف في مواطن سواها على السطح فحفظت لغتها وثقافتها نوعا ما . وراى المكتب ان حاجة القسم الاخير الى تفصيح عاميته اشد من محاربة الدخيل فيه، اما القسم الاول فهو في اشد الحاجة الى تفصيح عاميته ومحاربة الدخيل على لغته في وقت معا . ولذلك اصدر سلسلة كتيبات منذ عام 1963 عنوانها « قل ولا تقل » بلغ تعداد الفاظها اكثر من الف وجعل من عام 1971 عام محاربة الدخيل واتصل بجميع الدول العربية لتزويده بما تحتاج الى تفصيحه أو تصحيحه وهو مستعد لتقديم خدماته بكل سرعة ودقة . وكانت اول الدول العربية اهتماما بهذا المشروع هي الجمهورية الجزائرية . واول الهيئات العلمية التي ايدته هي اليونسكو .

---

(4) سبق للأستاذ احمد الاخضر غزال ان قام باحصاءات موفقة في هذا المجال .

ان النخبة المثقفة فى البلاد العربية على العموم وفى المغرب على الخصوص ، متأثرة بقدرة المصطلحات الاجنبية العلمية على الدقة فى التعبير والتصوير للمدرك العلمي والتقني فلا يرضيها التعريب الارتجالي ولا الفوضوي المتنافر ولا المتعدد المتكرر او الناقص فى دقته واحكامه ، وهي على حق فى هذا لانها ترى الفكر العربي على مفترق الطرق وتريد له ان يسلك السبيل السوي ، وترى لغتها وقد قبلت فى المجامع الدولية لغة خامسة الى جانب اللغات الحية العظمى فتريد لها دوام التقدم واطراد النجاح . ولقد لاحظ مكتب التعريب هذا الامر فاتخذ لذلك خطة علمية دقيقة يحمل مسئوليتها علماء العرب مجتمعين فهو يضع المصطلح بلغتين أجنبيتين معا هما الانكليزية والفرنسية ويضع امامه جميع المصطلحات التي عرب بها منسوبا كل منها الى صاحبه ان كان مجمعا علميا او استاذا لغويا مشهورا له بالتفوق ، او معجميا معروفا ... وينشر ذلك على شكل معجم الفبائي الترتيب ويضعه تحت انظار العلماء العرب لمدة لا تقل عن ستة اشهر ثم يدعو الى مؤتمر للعلماء المتخصصين نعقد فى ظل الجامعة العربية بالعواصم العربية على التوالي فيتدارسون المعجم وينقدونه ويختارون المصطلح الذي يريدون فيصبح شبه الزامي . واختيار مصطلح واحد من بين مجموعة مصطلحات يوحد التعريب حتما ويسهل السبيل على الدارسين والمدرسين والمؤلفين والكتاب .

ان الحضارة العلمية تقذف فى كل يوم بمائة مصطلح جديد الى ساحة التداول العلمي ، فكيف نلاحق هذا التراكض ! . المكتب أيها السادة يتراكض معها ويلاحق تطورها ويجمع المصطلحات فيعربها على هيئة ملاحق معجمية ويختار للمصطلح ما يقابله ويعرضه مع المعاجم الاولى على العلماء العرب للمداولة والنقد والتصحيح .

وتنبه المكتب الى ان جميع معاجم اللغة لم تجمع مفرداتها كلها ، فهناك مفردات متناثرة فى كتب العلوم والادب والتاريخ والجغرافيا القديمة لم تدخل المعاجم . وجمعها يحتاج الى وقت طويل جدا فماذا فعل ؟ ! جرد أكبر المعاجم العربية المعروفة (لسان العرب) ونسقه فى جزازات وجعله منطلقا يضيف اليه كل يوم ما يجتمع لديه من جزازات ويراكمها مصنفة تصنيفا أبجديا حتى بلغت مئات الالوف هي التي ستكون اساسا لمعجم المعاني الجديد واستخلص منها عددا من المعجمات فى بعض الفنون كمعجم الفقه المالكي ومعجم الاطعمة ومعجم الالوان ومعجم الطحانة والخبازة والفرانة ومعجم الرياضة واللعب ومعجم الآلات والادوات والاجهزة ومعجم اسماء العلوم والفنون والمذاهب والنظم ومعجم الحرف والمهن ومعجم البناء والمعجم المنزلي ومعجم الاطعمة وسواها ...

وها نحن نضع امامكم العدد الثامن من مجلتنا (اللسان العربي) فى ثلاثة مجلدات ، كل مجلد منها باكثر من سبع مائة صفحة ، وكلها معاجم علمية وتقنية باللغات الثلاث الانكليزية والفرنسية والعربية معروضة لمن يرغب من العلماء الحصول عليها بالمجان نقدمها ولا نتطلب اكثر من تقويمنا وتصحيحنا ومؤازرتنا فى البحث . وستصدر هذه المعاجم وملحقاتها منفردة على حدة مشكولة موضحة مفهرسة على الابجديتين العربية والفرنجية . ونحن ساعون الى اصدارها باكثر من هذه اللغات واتخذنا الاجراءات اللازمة لتنفيذها قريبا وهي كما ترون على نوعين :

1 — تقنية : كمعجم ابترول والميكانوغرافي

2 — علمية : كالكيمياء والفيزياء والجيولوجيا

وبذلك نساهم مجتمعين فى الثورة الثقافية المنشودة . ان ثورتنا معقولة مدروسة منتجة ، ثورة الاصالة والعمل المجدي .

ايها السادة نحن فى معركة لا هوادة فيها تتعرض فيها لغتنا لمحن عنيفة جدا ، تنتاشها من كل جانب ، والشعب العربي فى حال توفر يريد منا ان يعمل شيئا ما لحفظ كيانه ، واللغة عامل مهم جدا فى تثبيت هذا الكيان وابراز شخصيته وفي دفع الثورة الثقافية قدما الى الامام . ولا بد من اتخاذ الخطوات الجريئة الحاسمة فى تبسيط قواعد اللغة وتسهيل دراستها وتزويدها بمفاهيم علمية كاملة وتوحيد مصطلحات واعادة النظر أولا وقبل كل شيء بمناهج التعليم وبالكتب والمؤلفات التي توضع بين أيدي التلاميذ والطلاب ومراقبة الدعوات الهدامة كالدعوة الى العامية او الى الحروف اللاتينية .

ان اللغة كائن حي تعيش وتنمو بالتغذية المستمرة والعمل الجدي الدائب . ونحن فى مكتب تنسيق التعريب الدائم نضع انفسنا وخبراءنا وخبرتنا كلها تحت تصرف العاملين لخدمة لغة القرآن الكريم فى اي دولة عربية . نخدم لغتنا متحدين متآزرين لتخدمنا فى ثورتنا الثقافية وتحررنا العقلي وتثبيت كياننا الفكري .

نعطيها فتعطينا ، وما خاب من اتكل على الله وسعى .

أدوات التعريب المواكب ووسائله من منظور وحدوي

الدكتور عفيف دمشقيّة

مقدمــــة

لما كان كل انسان ينتمي بحكم ولادته وقدره المرسوم الى لغة من اللغات ، وكانت هذه اللغة هي التي ستطبع افكاره وعواطفه مدى حياته ، فانها هي التي ستتيح له بالتالي ان يتواصل ويتفاهم مع اناس آخرين يشكلون معه المجتمع اللغوى الخاص بهم . ذلك ان اللغة في اي مجتمع لغوى تمثل « راموزا » في مكنة كل فرد من افراد هذا المجتمع فك رموزه وفهم دلالاتها تبعا لنوع من « عقد اجتماعي » لا يدري متى وكيف تم عقده . كما ان الآصرة التي تشد هؤلاء الافراد بعضهم الى بعض تتمثل في امتلاكهم جميعا امكانات التعبير ذاتها ، وفي أن ما يستخدمه الفرد الواحد وسائر أفراد المجموعة من كلام يوقظ في اذهان كل الأطراف الاصداء عينها .

و « المجتمع اللغوى » اهم اشكال المجتمعات لانه يشرع الابواب لبلوغ مضامير الفكر والثقافة ، ويقلدنا مفاتيح الممتلكات الفكرية المستودعة في الاعمال المكتوبة . ومهما تعددت صيغ المجتمع بتعدد العوامل العرقية أو السياسية او المنفعية ، فان العامل اللغوى يبقى انجع الوسائل واكدها لخلق المجتمع المتماسك الذى يحس فيه كل فرد بالانتماء والولاء بشكل عفوى ، وبلا دافع من منفعة او مصلحة . ذلك لان « المجتمع اللغوى » اقدم اشكال المجتمعات واشدها اصالة وعراقة . وكما قال غونترايسن فان : « اللغة روح المجتمع الحقيقية ، وهي التي تؤلف عالما قائما بذاته ، ومحققا وجوده على هذا الاساس . فالمجتمع هو « نحن » التي تعي ذاتها في اللغة وبها تتواصل » (1)

وللباحث ان يزعم ان الامة العربية تؤلف من المحيط الى الخليج ، مجتمعا لغويا قائما بذاته ، اذا اخذ في الاعتبار ان اساس اللحمة في هذا المجتمع هو العربية النموذجية المشتركة (الفصحى) التي هي « الراموز » المشار اليه اعلاه . لكن في مقدوره كذلك الادعاء بأن هناك « مجتمعات لغوية عربية » لا مجتمعا واحدا ، بالنظر الى شتى « اللهجات » المستخدمة في اقطار الوطن العربي ، لا لان هذه اللهجات لا تمت الى « الراموز » المشترك بسبب ، وانما لان الرموز المستخدمة في كل قطر تتنوع وتختلف تبعا لعوامل اهمهــا :

1 ـــ المفاضلة النابعة عن ذوق خاص بين مفردة

واخرى للتعبير عن الامر الواحد ، كما هى الحال فى « الوقت » و « الحين » و « الساعة » للدلالة على اللحظة الراهنة .

2 ـ التحريف الصياغي او الصوتي اللاحق بالمفردات تبعا لقانون الاختصار الناتج عن الرغبة في اختزال الزمن من جهة ، وتمشيا مع « الجهد الاقل » من جهة اخرى ، او تبعا لقانون تعاقب الحروف وتبادلها ، كما في مختلف العبارات المستعملة للدلالة على اللحظة الراهنة : « هلّق » (بنطق القاف قافا حينا ، وهمزة حينا آخر) ، و « هلقيت » ، و « دلوقت » (بنطق القاف قافا حينا ، وجيما قاهرية مع مدها مدة كسر حينا آخر) ، و « الحين » ، و « هسّة » (بالوقف على التاء المربوطة هاء) ، او « إسّه » (بقلب الهاء همزة ولفظ التاء المربوطة ياء ممالة) .. الخ

3 ـ استخدام المفردات المستعارة او الدخيلة من اللغات التي قدر للعرب في شتى اقطارهم الاحتكاك بها قديما او حديثا كالفارسية ، والتركية ، والايطالية، والفرنسية ، والانكليزية ، والتي شاعت في الاستعمال للدلالة على المدلول الواحد ، ك « الطاولة » ، و « الترابيزة » ، و « الميز » ، و « السكملة » الخ .. لتسمية المنضدة او المائدة .

واذا كان من غير المستطاع الوقوف في وجه « اللهجات » ، لان ذلك من قبيل السباحة عكس التيار ، او محاولة القضاء ــ وهى محاولة يائسة ان لم تكن مستحيلة ــ على طبيعة الأشياء ، فلا اقل من العمل الدائب والسعى المتواصل لتنشيط « الراموز » المشترك تسهيلا لتواصل افراد الامة العربية فيما بينهم ، وشحذ احساسهم بالانتماء والولاء لمجتمع لغوى واحد ، لانه امتن اشكال المجتمعات كما راينا آنفا . ولعل من بين الوسائل والادوات الغائبة عن « التعريب ليصبح مواكبا لمتطلبات العصر والدور الذى يمكن أن يؤديه في دعم الوحدة العربية » :

اولا : ادب الاطفال والفتيان :

درجت الامم الراقية على اعارة اطفالها وفتيانها ابلغ الاهتمام لانهم عماد الامة والدم الكفيل بتجديد حياتها الى مالا نهاية . وكان لظهور علم النفس بعامة، وعلم نفس الطفل بخاصة ، اثره الكبير في توجيه انظار الكتاب والشعراء الى ضرورة التنبه لـ « الكائن الصغير » والكتابة عنه وله ، لما للادب والمطالعة من اهمية في نموه العقلي والخلقي والانفعالي والابداعي والاجتماعي .

وكان طبيعيا أن يطلع العرب في نهضتهم الجديدة على منجزات تلك الامم في عالم الطفولة ، وان يحاولوا اقتفاء خطاها في هذه السبيل ، وان يظهر في بعض اقطار العروبة « أدب اطفال » يتفاوت في جودته تفاوتا شديدا لغلبة التصنع عليه حينا ، وسيطرة اسلوب الراشدين ولغتهم والفاظهم احيانا .

واذ كانت الطفولة العربية تحتاج منا الى اعداد قويم يؤهلها لدخول عالم الراشدين ، ويهيئها لرسم مستقبل الامة التي تنتمى اليها ، فقد كان لزاما علينا ، نحن المتطلعين الى رص صفوف هذه الامة بكل ما من شأنه ترسيخ وحدتها القومية ، أن نبذل الغالى والرخيص لفهم طبيعة الناشئة ، ومراحل نموها ، والبيئة التي تعيش وتترعرع فيها ، توصلا الى خلق أدب يساعدها على النضج من ناحية ، وعلى تعميق شعورها بالانتماء والولاء للعروبة من ناحية ثانية . ويقودنا هذا الى جملة امور لعل اكثرها الحاحا الامور التالية :

1 ـ أن تردف جهود المهتمين اهتماما صادقا (بعيدا عن التطلع الى اى كسب او منفعة تجارية) بأدب الاطفال في الوطن العربي بجهود خيرة أخرى هدفها القضاء على « تجار ادب الطفولة » الذين لا همّ لهم سوى تحويل هذه الطفولة الى « بقرة حلوب ». ولعمرى فان اقوم السبل لتوفير مثل هذا المناخ الصحي لعالم الطفولة العربية هو خلق فريق عمل من المربين الافاضل الذين وجدوا فردوسهم المفقود في هذا العالم الساحر العجيب ، واكتسبوا الكثير من الدراية بشؤونه ، والمعرفة بتطلعات الناشئة ، والخبرة بقواميسها اللغوية ، ومن علماء نفس الطفل الذين وقفوا على اسرار حياته وعالمه نظريا وعمليا ، وباتوا قادرين على توفير اطيب الاجواء الصحية له نفسانيا وعقليا ومسلكيا ، ومن علماء الاجتماع الذين درسوا مجتمع الاطفال دراسة ميدانية الى جانب دراسته الدراسة النظرية ، اهلهم علمهم وخبرتهم لتحديد افضل نماذجه من الناحيتين الخلقية والاجتماعية ، ومن القصاص الذين مارسوا الكتابة للاطفال والفتيان ، وزودتهم ممارستهم بالقدرة على اجتذابهم الى نتاجهم وتثقيفهم الثقافة التي تعدهم لمواجهة المستقبل مسلحين بكل ما يحتاجون اليه من وعي لادراك

مشكلاتهم الانسانية والاجتماعية والقومية والسبل الآيلة الى معالجتها وحلها ، ومن اللغويين — ولا سيما المهتمين بلغة الطفل — العارفين بخصائص العربية وأسرارها ، القادرين على امداد حوافظ الناشئة بأصفى أساليب التعبير ، وأكثرها قدرة على صوغ الفكر ، وأبعدها عن متاهات التحذلق والتأنق الفارغ، العاملين بصدق على تضييق الشقة بين الفصحى الشاملة أرجاء الوطن العربي ، والعاميات المحلية المحدودة الرقعة ، بتفصيح أساليب هذه الاخيرة ، وتبسيط أساليب الاولى بشكل علمي دقيق يأخذ في الحسبان كل العوامل المساعدة على الصعيدين النفساني والاجتماعي .

2 — لما كان العرب يتطلعون الى جمع شملهم وتوحيد كلمتهم فان أول المعالم على طريق الوحدة هو تنشئة أطفالهم على هذا الأمر القومي الخطير . ولا بد لبلوغ هذا الهدف من الخروج بالناشئة العربية من حدود وطنها الاصغر (القطر ، بل الجزء من القطر) الى رحاب الوطن الاكبر من المحيط الى الخليج. ولا يمكن أن يتم لنا ذلك الا بتعريفها بهذا الوطن من اقصاه الى اقصاه ، جغرافيا ، مع التركيز على دور المؤثرات المناخية في التباين بالزي والمسكن وبعض التقاليد والعادات ، وعلى الموارد الاقتصادية المختلفة باختلاف المناطق العربية ، ودور هذه الموارد في نمو الوطن العربي وازدهاره اذا أحسن العرب استغلالها بانفسهم واقتسام خيراتها فيما بينهم ، وبشريا ، مع الالحاح على الشيم والمناقب التي تؤلف القواسم المشتركة بين أبناء العروبة كافة ، وتراثا شعبيا ، مع بيان نقاط التلاقي العائدة الى اشتراك العرب في بعض هذا التراث ، ونقاط التباين الناجمة عن المؤثرات البيئية البحت .

3 — يقرر علماء النفس ان من تراوح اعمارهم بين الثامنة والثالثة عشرة مولعون بالمغامرة والبطولة. وهكذا يصبح المجال رحبا امام الفريق الساعي الى اسعاد الطفولة العربية وتوثيق عرى الوحدة بين افرادها لبلوغ الوحدة الكبرى والاستمرار في تعزيزها حين يشبون عن الطوق ، لان يعرفوهم بأبطالهم القوميين ، وبمشاهير رجال العروبة ونسائها قديما وحديثا ، بوصفهم « أجدادا » عربا ، لا تبعا لانتمائهم الى احد اقطار العروبة او الى احد اقاليم الوطن العربي . ولا ندعي ان هذا الاتجاه جديد على الامة العربية ، فاكثر الاطفال والفتيان العرب تعرفوا ، عبر الكتب المقررة للتدريس ، الى ابطال وبطلات عظام من التاريخ العربي واحلوهم من نفوسهم منزلة الاكبار والاعتزاز ، فباتوا جزءا لا يتجزأ منهم . والذي نتطلع اليه اليوم هو ان يحل الى جانب اولئك ابطال وبطلات من التاريخ العربي الحديث ، فلا يكون امثال عمر المختار ، وجميلة بوحيرد ، وجميلة بوباشا ، ابطالا من « المغرب العربي » ، ولا سعد زغلول ، واحمد عرابي ، وجمال عبد الناصر ، ابطالا من « مصر » ولا يوسف العظمة ، وابراهيم هنانو ، وجول جمال ، ابطالا من « سوريا » ، ولا طانيوس شاهين ، وعمر حمد ، وكمال جنبلاط ، ابطالا من « لبنان » ، ولا حسن سلامة ، وبسام الشكعة ، ودلال المغربي ، ابطالا من « فلسطين » ، ولا .. ولا ... ولا .. وانما يغدو هؤلاء وغيرهم من افذاذ الامة العربية رجالا ونساء ، ملكا للامة جمعاء ، يعرفهم اطفالها ، قاصيهم ودانيهم ، ويعايشونهم ، ويفخرون بهم ويتفاخرون ، ويحتذون خطاهم في الجهاد والتضحية والفداء والشهادة لاعلاء شان الامة باسرها .

4 — انه لما كانت اشكال البيئة العربية متعددة، فقد كان من الطبيعي ان تعدد الاسماء بتعدد المسميات، كما انه لما كانت الاقطار العربية قد عرفت تأثيرات وتداخلات لغوية مختلفة ، بفعل الجوار والتبادل التجاري ، أو بفعل الانتداب والاستعمار ، فقد اصبح للمسمى الواحد اسماء تختلف من قطر الى آخر . ومن شأن ذلك بالطبع ان يخل بنظام « الراموز » المشترك، وان يؤدي بالتالي الى انقطاع التواصل بين ابناء العروبة في اكثر الاحيان اذا لجأ كل منهم الى راموزه المحلي . فالمعروف ان التواصل لا يمكن ان يتم بين شخصين الا اذا كانا متفقين سلفا على العلاقة القائمة بين الدال والمدلول عليه ، والمتمثلة في « الراموز » المتواضع عليه منهما . كما انه من بديهيات الامور ان يستحيل ارتسام صورة منضدة مثلا في مخيلة طفل عربي من لبنان اذا سمع طفلا عربيا من مصر يقول « ترابيزة » ، وآخر من العراق او الخليج يقول « ميز » ، لانه لا يعرفها الا باسمها المألوف في قطره : « طاولة » . وأن يستحيل تصور « البطيخة » مثلا اذا سميت « دلاحة » كما يطلق عليها في معظم اقطار المغرب العربي ، او « رقية » (بتحويل القاف الى جيم قاهرية) ، كما تسمى في العراق وبعض بلدان الخليج العربي .

ولا شك ان تعريف الاطفال العرب بمختلف

اشكال البيئة فى الوطن العربى الاكبر ، والحرص على اختيار ابسط المفردات وافصحها . لهذا التعريف وما يتفرع عنه من تعريفات بمحتويات كل بيئة ، عن طريق ربط الاشياء بأسمائها فى اللغة النموذجية المشتركة ، من شأنه أن ينتقل بدلالة الاسماء على المسميات من نطاق « الخاص » — اى المحلى والاقليمى الذى سيبقى قائما بطبيعة الحال تبعا لمنطق الامور — الى رحاب « المشترك » الذى سيؤلف فيما بعد « الراموز » الشامل المساعد على تسهيل التواصل بين أبناء الامة قاطبة ، والقضاء منْ ثم على الحواجز اللغوية التى يحس معها العربى ، طفلا ، او يافعا ، او راشدا ، بالغربة تجاه شقيقه العربى اذا ما لجا كل منهما الى راموزه وقاموسه المحليين .

5 — على العاملين فى سبيل اعداد الناشئة العربية اعدادا وحدويا الا يقصروا جهودهم وبحوثهم على الادب المكتوب : من قصص ومجلات وموسوعات ورسوم مرفقة بالكلام ، بل عليهم ان يتجاوزوا ذلك الى كل ما افرزته التكنولوجيا الحديثة فى حقل الوسائل السمعية — البصرية ، من شرائح تعكس على شاشة خاصة ويعلق على ما تقدمه من مشاهد وصور ، واسطوانات واشرطة مسجل عليها الاغانى والاناشيد ، وأخرى باشرطة « الفيديو » . الخ . ولقد كنا فى لبنان نحفظ ونحن صغار ، كما كان يحفظ اترابنا فى سوريا وفلسطين ، اناشيد طالما نفحتنا بعزة قومية اصيلة ، لعل اشدها توافقا مع المقام الذى نحن فيه الآن نشيد مطلعه :

بلاد العرب اوطانى
من الشام لبغدان
ومن نجد الى يمن
الى مصر فتطوان
فلا حد يباعدنا
ولا دين يفرقنا
لسان الضاد يجمعنا
بغسان وعدنان . الخ

وذلك فى زمن لم تكن فيه التكنولوجيا قد بلغت ما بلغت ، فكيف بأطفالنا اليوم — والوسائل التى ذكرناها كثيرة ؛ ونفعها جليلة — اذا عممنا عليهم مثل هذه الاناشيد ، وغيرها من صنوف الابداع الفنى؛ مداميك اولى فى صرح الوحدة الكبرى ؟

6 — التعليم شرط اساسى لاقبال الطفل على المطالعة والاستفادة من مختلف وسائل المعرفة . وهو الى جانب رفع مستواه الفكرى يقرب تعبيره درجات من مستوى التعبير الفصيح . وعلى العاملين فى سبيل التعريب وشد أواصر العروبة وتوحيد ابنائها الا يدعوا وسيلة لاقناع اولى الشان فى كل جزء من اجزاء الوطن العربى بضرورة تعميم التعليم وفرضه حتى المرحلة المتوسطة (الاعدادية) على اقل تقدير . فلا يعقل ان يرسخ الشعور بالانتماء الى الوطن الاكبر والولاء له الا اذا تعهدناه منذ نعومة الاظفار . ولا يكون هذا التعهد الا بالتعليم والتربية . ولعل تشرذم ابناء العروبة ما كان ليحدث لو لم تستمت قوى التسلط الغربية فى تجهيلهم ، بسلبهم حقا من اقدس حقوق الانسان ، حق التعلم ، وتشجيع اللهجات المحلية ، علاوة على المحاولات الباغية لسرقة اللسان العربى من ابنائه فى بعض اجزاء الوطن (2) .

ثانيا — الاعلام العربى :

بات الاعلام بشتى فروعه كما هو معروف من اقوى الدعائم لتشكيل الفكر القومى ، وتعميق الشعور بالولاء للامة والوطن ، الى جانب انه من أهم العوامل على نشر الثقافة والمعرفة . ووسيلة من وسائل التسلية البريئة ونشدان راحة النفس والاعصاب من عناء العمل وظروف الحياة الحديثة . ويشمل هذا الاعلام ، كما هو سائد ، الاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح ، الى جانب الصحافة . ولا تشكل هذه الاخيرة بالنسبة الى الوحدة الثقافية واللغوية عقبة تذكر ، لاختيارها اللغة النموذجية المشتركة ، مع تباين طفيف فى بعض الصيغ والعبارات من قطر الى آخر ، ولاعتمادها ، منذ اطلالتها على الوطن العربى مع فجر النهضة الحديثة . اسهل الاساليب واقربها الى متناول اعرض الجماهير العربية . كما ان الاذاعات العربية تواضعت على اخراج معظم برامجها بالفصحى المتداولة اليوم بين الناس ، اى اللغة التى يمكن ان يطلق عليها بحق اسم « العربية المعاصرة » والتى اثبتت قدرتها على الاستجابة لمطالب العصر ، وطواعيتها فى تلبية كل ابداع مستجد . ولا يحق لاحد بالطبع ان يطالب هذه الاذاعات بالتخلى عن بعض برامجها المذاعة باللهجة المحكية المحلية ، لان مثل هذه المطالبة تعنى القضاء على الازجال والاغانى والاهازيج الشعبية ، وعلى صور من الفلكلور لا يجوز طمسها بحال من الاحوال ، بل يجب على العكس

تشجيعها وتنشيطها ، شريطة عدم طغيانها على سائر اشكال النتاج الفكري العربي .

وجل ما يطالب به الاذاعيون العرب في هـذا المقام أن تتضافر جهودهم لانتاج برامج تصور بعض جوانب الحياة في شتى اقطار العروبة ، والوانا من الفلكلور المحلي ، بلغة فصحى سهلة ، يتم تبادلهـا وتداولها بين الاذاعات العربية المختلفة ، فيتسنى لسكان القطر الذين لا تبلغهم أمواج اذاعة منها ان يتعرفوا الى احوال اخوانهم في القطر الذي تنتمي اليه هذه الاذاعة او تلك . وقل الامر نفسه في البرامج التلفزيونية التي باتت تستغرق جزءا لا يستهان به من حياة الانسان اليومية .

وأما السينما والمسرح العربيان فشأنهما مختلف تماما عن شأن سائر فروع الاعلام . ذلك ان نشأتهما في الوطن العربي — وعلى الاخص في القطر المصري — قد تمت في زمن كانت فيه الامية هي السائدة ، بينما كان العلم وقفا على قلة قليلة من الناس . ولم يكن في الامكان بالطبع المغامرة بنتاج سينمائي مفروض فيه ان يتوجه الى اوسع الجماهير ، بلغة لا تتداولها هذه الجماهير في حياتها اليومية والعامة ، وذلك لامور لعل اهمها العامل الاقتصادي . فالمفترض في الشريط السينمائي ان يعود بالربح والفائدة على المنتج والمخرج وصاحب الصالة ، او عدم تعريضهم للخسارة على الاقل . وبديهي ان بلوغ هذا الهدف لا يتأتى إلا عن طريق تأمين دخل محترم من شبابيك التذاكر بصالات العرض ، اي باقبال اكبر عدد من المشاهدين . وليس هؤلاء بالطبع سوى عامة الناس ، غير المتعلمين على الاغلب ، الذين لا يمكنهم أن يتفاعلوا بيسر ، وبشكل عفوي ، مع أحداث من الحياة ، ونماذج من البشر يتحدثون بلغة تكاد تكون غريبة عنهم ، ولا سيما اذا أمعنت في استخدام الاساليب السائدة في تلك الايام . وهي اقرب ما تكون الى المحنطات .

وما يقال عن السينما ينطبق الى حد كبير على المسرح . فكلاهما يفترضان في المشاهد ان يعيش ما يقدم اليه من صور ووقائع وكأنه احد ابطال الشريط السينمائي او المسرحية . ومن الطبيعي جدا الا يتيسر له ذلك عبر لغة كثيرا ما يقف عاجزا عن حل رموزها لانه لم يتلق قسطا من التعليم يعينه على ذلك . واذا حدث ان بعض الاقطار العربية يفتح صدره اليـوم للسينما والمسرح المنتجين باللهجة المصرية (القاهرية في اغلب الاحيان) ، فذلك ناتج عن غزوها اجزاء من الوطن العربي في زمن مبكر ، واعتياد الناس رموز تلك اللهجة واستقرارها في حوافظهم بالحدس والربط بينها وبين الحركات والانفعال المرافقة لها بادىء الامر، ثم عن طريق اتضاح دلالاتها اكثر فأكثر بفعل التكرار. نقول ذلك مع التاكيد بان عددا من رموز اللهجة المصرية يبقى في عداد الطلسمات بالنسبة الى غير ابناء القطر المصري ، حتى اولئك الذين طالت الفتهم للسينمـا والمسرح المصريين .

واليوم ، وبعد ان زادت نسبة المتعلمين في الوطن العربي (نرجو أن يكون اليوم الذي لا يبقى فيه أميّ واحد على وجه الارض العربية قريبا) ، بات من الملح البحث عن عربية مشتركة للسينما والمسرح . ولكيلا يتبادر الى الاذهان ان هذه « العربية » المطلوبة لغة جديدة ، او مصطنعة ، نسارع الى القول انها ليست شيئا من ذلك على الاطلاق ، واننا اذ نقترحها فمستندين الى اكثر من دعامة من دعائم تراثنا الذي نعتز بـه .

لقد توارثنا عن الاجداد قولهم : « لكل مقام مقال » ، وتراثنا في بعض كتب الادب واللغة والبلاغة انه ليس المقصود بـ « الاعراب » — وهي ظاهرة لا يمكن لاحد تجاهلها ، او المطالبة بالغائها ، تحت اي ستار ، لانها جزء لا يتجزأ من اللغة التي ورثناها معربة كابرا عن كابر — أن يؤمن للمخاطب فهم مراد المتكلم بصورة عامـة مطلقـة ، كمـا يطيب لبعض النحاة ان يفعلوا ، وانما تأمين هذا الفهم في المواضع التي يخشى معها اللبس . وهاهو ذا ابن الاثير — وهو من هو في اللغة والبيان — يقول في كتابه « المثل السائر » ان المتكلم لو قال للمخاطب : « أن تقوم اقوم » ، ولم يحذف « الواو » من الفعلين ، او قال : « جاء زيد راكب » ، ولم ينوّن « زيد » تنوين الرفع، ولا « راكب » تنوين النصب ، أو قال : « ما في السماء قدر راحة سحاب » ، ولم يقم الاعراب في اواخر الكلمات ، ولا سيما تنوين النصب في « سحاب » ، لما استغلق المراد على المخاطب ، ولفهم القصد من الكلام . لكن المتكلم ان لم يقم الاعراب في « زيد » بالرفع والنصب والجر ، وفي « احسن » بالبناء على الفتح وبالرفع ، في الصيغ الثلاث : « ما احسـن زيد » التي تدل اولاها على نفي الاحسان عن زيد ، وثانيتها على التعجب من حسنه ، والثالثة على التساؤل عن احسن ما فيه ، وقع اللبس ولم يتسن للمخاطب تمييز القصد .

وعليه نقول ان اللغة المطلوبة للسينما والمسرح العربيين ، تأمينا لتواصل العرب وتلاقح أفكارهم وتعرفهم بعضهم الى بعض ، ينبغى ان تتوافر فيها المقومات التالية :

1 ــ ان « المقام » (فى السينما والمسرح) مقام تفاعل مع احداث الحياة اليومية يعيشها بشر مثلنا نشاطرهم افراحهم وآلامهم ، وان « المقال » المطلوب له يجب ان يتجنب الحذلقة التى من شأنها ان تقيم حاجزا بين المتكلم (الممثل) وبين المخاطب (المشاهد) يمنع المشاركة الوجدانية ويقضى بالتالى على الهدف المنشود من العرض السينمائى او المسرحى وان يتحاشى كل لفظ غير مأنوس ولا متداول فى الوقت الراهن ، وكل اسلوب لا يمت الى الواقع الحاضر بصلة . المطلوب باختصار « مقال » يحاكى العاميات الشائعة فى الوطن العربى من حيث سهولتها واستجابتها الفورية للمواقف الانفعالية ، مع ابتعاده كل الابتعاد عن رثاثتها وعجزها عن اداء الرسالة الا الى نفر محدود من ابناء الامة .

2 ــ ان الاعتدال فى اقامة الاعراب فى اواخر الكلمات ــ الا فى المواضع التى تسهل فيها حركة الاعراب النطق ، كما فى الاضافة الى المعرفات بـ « ال » والمفردات المبدوءة بهمزة الوصل مثلا ، وهو ما يعرف بـ « منع التقاء الساكنين » ــ من شأنه المساعدة على رشاقة العبارة ، واختصار زمنها ، وهما امران مطلوبان فى المقام الذى نحن بصدده ، مقام التفاعل الآنى البعيد عن كل كد للذهن فى البحث عن تسلسل الروابط اللغوية ، كما هى الحال فى الادب المكتوب ..

3 ــ يجب ان ينصب الحرص على اقامة الاعراب داخل الكلمة للتمييز مثلا بين « اخرج » المعلوم وصنوه المجهول ، و « ينزل » من الثلاثى وصنوه من الرباعى ، و « مكرم » المبنى للفاعل والآخر المبنى للمفعول الخ . نظرا لما لهذا الاعراب الداخلى من اهمية فى بيان المعانى المقصودة .

4 ــ يمكن ان تكون نبرة الملفوظ بديلا من الاعراب المتمثل فى حركة آخر الكلمة . فما لا ريب فيه انه لا مجال للبس بين « ما احسن زيد » التى للتعجب من حسنه ، والاخرى التى هى للسؤال عن أحسن ما فيه ، اذا لفظت كل منهما كما ينبغى لها ان تلفظ. ثم ان اللغة لا تعدم وسيلة للتعبير عن نفى الاحسان عن زيد بغير صيغة « ما احسن زيد » ، وذلك بتقديم « زيد » هذا الى اول العبارة ، او باختيار اداة للنفى غير « ما » .

5 ــ ان من شأن الواقع الحى الناشىء عن الحركات والمواقف المرافقة للكلام الدائر ان يختصر كثيرا من عناصر العبارة ، ويختزل الصيغ الى ابسط الاشكال (كلمة او كلمتان احيانا) . فالاشارة الى شىء او مد اليد به يقوم بهما ممثل قبالة ممثل آخر يعنيان « خذه » من غير حاجة الى لفظ الفعل . كما ان نبرة الصوت المرافقة للفظ الكلمة الواحدة تدل دلالات متنوعة ، وتغنى من جهة ثانية عن كلمات اخرى كان يجب ان تلازمها لو كان المقام غير المقام.

وغنى عن البيان انه ينبغى ان تسبق مثل هذه التجربة (التى نرجو مخلصين الا ينظر اليها بعين الريبة ، والا تقابل بالانفعال والافكار المسبقة ، والتى لا تتنافى فى اعتقادنا ونقاء الفصحى وبقاءها اللغة القومية الحية ما دمنا نحرص على تعليمها بالطرق السليمة لغة قراءة وكتابة كاملة الاعراب ، مستقيمة التركيب ، بل هى على العكس من ذلك تدعم الفصحى وتشد ازرها لانتزاعها حيزا رحبا من النشاط الفكرى والابداعى من براثن اللهجات المحلية) ابحاث لغوية رصينة تكتنه اسرار العربية وتقف على خصائصها فى موافقة مقتضى الحال ، مسترشدة بآراء اهل الاختصاص فى شتى الميادين النفسانية والفنية والتقنية ، لتتكامل الجهود ، وتؤتى التجربة اطيب الثمار والاكل . ولا ريب ان مثل هذه الابحاث كفيلة باحصاء كل صعوبة قد تخطر على بال ، وتعجز مثل هذه العجالة عن وصف الحل الناجع لها ، وقمينة بتذليل كل ما يعترض هذا الاقتراح من عقبات .

ثالثا ـ مشكلات اخرى :

لعل من تحصيل الحاصل القول ان الجهود الرامية الى توحيد العرب بتوحيد لغتهم اكثر من ان تحصى . كما ان الابحاث الدائرة فى هذا الفلك اكثر من ان يحاط بها فى دراسة عجلى كهذه الدراسة (3). ولكن السمة الغالبة على ما يعرف بـ « التعريب » هى محاولة الحد من فوضى المصطلحات العلمية والتقنية الناجمة عن نقل العرب ما جد فى العصر الحديث ، وما يجد كل يوم بسرعة مذهلة ، من مكتشفات ومفاهيم فى حقلى العلوم الصحيحة والانسانية ، والعمل على توحيد هذه المصطلحات لخلق

لغة علمية عربية يستوى فى فهم رموزها ودلالاتهـا القاصى والدانى من أبناء العروبة . وتلك جهـود مشكورة لعمر الحق أجزل الشكر . واذا كنا نلفت الانظار الى بعض المشكلات اللغوية بعيدا عن قضية « المصطلحات » ، فلاعتقادنا بمساس الحاجة اليها مساسها الى الابحاث الدائرة اليوم ، ولانها فى صميم « الوسائل التى تنتص التعريب ليصبـح مواكبـا لمتطلبات العصر والدور الذى يمكن ان يؤديه فى دعم الوحدة العربية » ، كما هو ملحوظ فى جردة الابحاث المطلوبة فى هذه الندوة .

ولعلنا لا نذيع سرا اذا اكدنا ان المصطلح الجديد لا تكتب له الحياة الا بالاستعمال والشيوع ، وانه لكي يتم استعماله لا بد ان يتقبله المستعملون بقبول حسن . ولا يمكن ان يكون قبول ما لم يكن المصطلح محددا تحديدا دقيقا بثلاثة امور رئيسية هى :

ـ الجذر الذى منه اشتق او ارتجل ، والذى يتضمن الشحنة الدلالية الاساسية .

ـ الصيغة التى سكبتفيها مادة الجـذر ، والتـى تنتقـل بالدلالة من المطلق العام الى المعين الخـاص .

ـ الزوائد التى قد تتعدى حدود الصيغة الملونة لتزويد الدلالة بقدر جديد من التخصيص . ولا يتيسر ذلك الا اذا سبقته ابحاث تهدف الي تحقيق الامور التـاليـة :

1 ـ تحديد دلالة الالفاظ ـ ولا سيما فـى المجالات التى ثبتت الحاجة الى العناية الفائقة بها ـ بدراستها دراسة علمية دقيقة ، تعضدها الوسائل التقنية والتكنولوجية الحديثة ، فى مختلف سياقاتهـا اللغوية . فلا وجود للدلالة فى المطلق ، ولا معنـى للفظة فى الفراغ ، وانما يتحدد معناها ، او معانيها وظلال تلك المعانى ، فى اطارها الطبيعى المتمثل فى سياق العبارة اولا ، ثم فى سياق الموضوع العـام الذى فيـه استخدمت .

2 ـ الوقوف على ما تطور من الدلالات ، وما احتفظ منها باطاره الثابت كليا او جزئيا ، بدراسة مختلف النصوص دراسة تاريخية تتناولها فى شطائر زمنية تتقارب او تتباعد تبعا لمنطلقات محددة تشكل عوامل تطور اجتماعى او فكرى أو سياسى .

3 ـ استغلال الابحاث والدراسات المذكورة لوضع « معجم تاريخى » مؤيد بالشواهد والنصوص وشتى الاستعمالات عبر حقب زمنية معينة ياخذ بايدى طلاب العربية والمشتغلين بتنميتها واغنائها على كل الصعد ، ويساعدهم على اكتناه دقائق الدلالات ، ويبلغهم اهدافهم فى ابقاء لغتهم القومية حية وقادرة على مسايرة حاجات العصر ، والاستجابة لكل ابداع ، باستخدام هذه اللغة استخداما صحيحا لا يترك مجالا لحيرة أو لاحساس بالتردد او القصور او العجز

وتقودنا مشكلة المصطلح العلمى الى مشكلة اخرى لعلها اكبر واعقد ، وان كانت تحتجب أو تكاد وراء الحاح الاولى وبروزها باستمرار تحت ضغط تسارع الاكتشافات العالمية ، واحساس العـرب بضرورة اللحاق بركب الحضارة الانسانية الشاملة ، عنينا مشكلة النقول من لغة ، او لغات ، لها خصائصها التركيبية التى تختلف جزئيا او كليا عن خصائـص العربية ، والتى قد يؤدى عدم الوقوف عليها الى معضلات دلالية ، بل الى عكس الدلالة المرادة فى بعض الاحيان . وقد حدث مثل هذا الامر منذ مطلع النهضة الحديثة الاولى فتأثرت العربية بأساليب لا تمت الـى اساليبها بسبب . ولا نعنى بهذه الاساليب « التعابير المستعارة » من مثل (ذر الرماد فى العيـون) و (الاصطياد فى الماء العكر) الخ . فهى من قبيل المقترضات بين الامم التى بلغت مستويات متقاربة من الرقى الفكرى والحضارى ، واتسعت لغاتها ورقيت تبعا لذلك ، وانما نعنى طرائق نظم الكلام التى تختلف من لغة الى لغة ، والتى يفضى الجهل بها الى خلل فى بلوغ الرسالة الى المرسل اليه لاختلال « الراموز » المتواضع عليه تلقائيا بين ابناء اللغة الواحدة .

وان المطالع اليوم للنتاج العربى فى الحقول التى ذكرناها آنفا يكاد يحس بالغربة ازاء « اللغة » التى بها كتب معظم هذا النتاج ، لا لجهله بالمصطلحـات الجديدة وحسب ، وانما للاختلال الذى اشرنا اليـه اعلاه ، والذى يتمثل فى نقل الصيغ الاجنبية بعجرها وبجرها ، وبغض النظر عن مطابقتها او عدم مطابقتها للصيغ العربية . واذا كان للعلوم الصحيحة والمعادلات الرياضية والفيزيائية والكيميائية لغتها واساليبها التى هى اقرب الى اساليب البرقيات ولغتها ، فان العلوم الانسانية تحتاج الى دراية بأسرار اللغة لا تقل عن الدراية المطلوبة فى مجال الادب نفسه . ولذا فانه لا يكفى ان يكون الناهد للكتابة فى فرع من فروع هذه العلوم باللغة العربية متضلعا من المادة التى تدور عليها دراسته ، بل ينبغى أن يكون قادرا على نقل دقائق هذه المادة بأمانة تامة الى القارىء العربى .

ولا تتوفر له هذه الامانة التي يحرص دون ريب على التحلي بها الا اذا كان يملك أولى ادواتها ، عنينا التعبير الصحيح الميسور فهمه لكل متعلم طامع في زيادة نفسه علما ومعرفة .

ولعل الطريق الاوحد لبلوغ هذا الهدف هو قيام أبحاث علمية دقيقة تتناول بالدرس والتمحيص خصائص العربية في ضوء « علم اساليب اللغة » القائم على ميدانين اساسيين :

1 ــ « الابلاغية » التي تتضمن كل ما يتجاوز حد الكلام الموضوعي والذهني ، وحدود نقل الوقائع والافكار ، باللجوء الى عوامل تعبيرية معينة ، منها ابراز عنصر من عناصر الكلام بالتقديم او التأخير ، وتساوق العبارة ، وجرسها ، ونبرة الملفوظ ، واستخدام القيم العاطفية ، والاخرى التي تستدعي الى الذهن صورا معينة ، كالاستعارة من سجل ادبي خالد ، او من الامثال السائرة ، او من الادب الشعبي .

2 ــ الخيار الاسلوبي المتمثل في اباحة اللغة صيغتين او أكثر للتعبير عن الفكرة الواحدة ، وتمكين المستعمل من انتقاء انسب تلك الصيغ لنقل فكرته الى المخاطب واشدها حفولا باللطائف والدقائق .

ومن شان هذه الدراسات أن تتيح الوقوف على عدة أمور اهمها :

1 ــ احصاء القيم الابلاغية والاخرى المستدعية للصور داخل عنصر اسلوبي معين في حقب زمنية شتى (الصيغ البلاغية المتبعة مثلا في الدراسات الاسلوبية التقليدية)

2 ــ ما قد يكون أصاب الصيغ العربية على مر العصور من تطور ، هذا التطور الذي تكاد تطمس معالمه الدراسات النحوية التقليدية المتمحورة حول اجازة النحويين او منعهم صيغة من الصيغ ، او ترجحهم بين الاجازة والمنع في ظاهرة من الظواهر التركيبية ، كالفصل مثلا بين المضاف والمضاف اليه بعنصر كلامي .

3 ــ الجملة العربية والمواضع التي لا يجوز فيها التصرف بطريقة نظم عناصرها ، لاخلال هذا التصرف بالسياق ، واعاقة الوقوف على المراد منه ، لتعثر الرسالة في الوصول الى المرسل اليه . والمقصود من ذلك كله تحاشي الاستعمالات الغريبة التي قد ترشح الى العربية بفعل النقول من اللغات الاجنبية، او بسلطان من اساليب تلك اللغات على المتمرس العربي بعلم من العلوم المكتوبة بها حين يطمح الى الكتابة في هذا العلم بلغته القومية التي يفترض فيها ان تبلغ الرسالة نفسها الى كل فرد من افراد الامة ، بغض النظر عن معرفته او جهله باللغات الاخرى .

4 ــ المواضع التي يساعد التصرف فيها على تسريع وصول الرسالة الى جميع المرسل اليهم بالنسبة نفسها ، وتمكينهم بالتالي من التمتع بخيراتها ، وتوسيع دائرة معرفتهم وثقافتهم بثمارها الشهية الجديدة .

ولا مراء في ان هذه الامور وغيرها تساعد على التعريب والتوحيد اللغوي اللذين نطمح جميعا لجعلهما الخطوة الاولى في مسيرة الوحدة العربية الكبرى .

هوامش البحث :

(*) بحث القي في ندوة « التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية » التي نظمها (مركز دراسات الوحدة العربية) في تونس ، 23 ــ 26 تشرين الثاني (نوفمبر) 1981 .

1) استفدنا كثيرا من عناصر هذه الفقرة من كتاب : س . أولمان وف . ف نارتبرغ ، **مشكلات الالسنية وطرقها** (باريس : 1969) .

2) استفدنا ببعض الآراء الواردة في هذه الفقرة من البحث من دراسة : عبد الرزاق جعفر ، **ادب الاطفال** (دمشق : منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 1979) .

3) من المفيد جدا في هذا الصدد الرجوع الى دراسة : محمد المنجي الصيادي ، **التعريب والتنسيق في الوطن العربي** (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 1980) .



منشورات الطليعة العربية في تونس

مارس 1986